المبحث الثاني

هل تدري معنى: أحب الخلق إلى الله؟

لقد تكلم الله ـ عز وجل ـ عن حبه لبعض خلقه في كتابه العزيز في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة:٤٢] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة :٤] ، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران :١٥٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة :٥٤] ، وقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [آل عمران :٣١] ، ووصف نفسه بالوُدّ ، وهو خالص المحبة فقال: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [البروج:١٤] ،و﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] .

■ والآيات كلها شاهدة بوصف الله ـ تعالى ـ بالحب ، وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة .

قال الشيخ / محمد خليل هراس ـ رحمه الله ـ في شرحه على الواسطية:

« تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة ، ومحبة الله ـ عز وجل ـ لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به ، هي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئته فهو يحب بعض الأشياء دون بعض، على ما تقتضيه حكمته البالغة ، وهناك من ينفي صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصاً ، إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه ، ويقولون: إنه لا معنى لمحبة الله لعبده إلا إرادته إكرامه ومثوبته ، وقال بعضهم : إن المحبة هي نفس الثواب ، وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقة لله ـ عز وجل ـ على ما يليق به ، فلا تقتضي عندهم نقصاً ولا تشبيهاً ، كما يثبتون لازم تلك المحبة

وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته ، وليت شعري بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « **إن الله ـ عز وجل ـ إذا أحب عبداً قال لجبريل عليه السلام : إني أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيقول جبريل عليه السلام لأهل السماء : إن ربكم ـ عز وجل ـ يحب فلاناً فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغضه فمثل ذلك** » (١) .

وما أخبرنا الله ـ عز وجل ـ بذلك إلا لكي نبادر إلى الاتصاف بما يحبه من الأخلاق ، والقيام بالأعمال التي يحبها ، والإكثار من ذكر الكلام الذي يحبه ، وبذلك يحبنا سبحانه وتعالى (٢) .

ولعل الذين ينفون وصف الله بالمحبة والوُدّ، وإن كانوا قالوا هذا طلبًا لتنزيه الله ودفعًا للتشبيه عنه ، إلا أنهم لو تأملوا معنى المحبة والودّ من الله للعبد وآثار ذلك في الدنيا والآخرة :لأثبتوا ما أثبت الله ـ تعالى ـ لنفسه، وما أثبت له رسوله ﷺ .

ما قيمة حب الله تعالى لعبده ؟ :

إن محبة الله لعبده إن تفضّل بها ـ عز وجل ـ على عبد من عباده فهذا شيء لا يُقدَّر لعظمته ، فمن يكون ذاك العبد حتى يحبه مولاه ؟ .

قال الشيخ / سيد قطب ـ رحمه الله ـ : « وحب الله لعبدٍ من عبيده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله ـ سبحانه ـ بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها ... أجل لا يُقدّر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي ... الذي يعرف من هو الله ... من هو صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير ! .

---

(١) شرح العقيدة الواسطية، ص١٧٦، ط. دار ابن الجوزي وبها ثلاثة شروح : لابن عثيمين ، والفوزان، وهراس ، والحديث في صحيح مسلم برقم (١٨٤٤) .

(٢) د. عمر سليمان الأشقر ، العقيدة في الله ، ص (١٧٧) ط. دار النفائس ، عما ١٩٩١م .

من هو في عظمته ، ومن هو في قدرته ، ومن هو في تفرده ، ومن هو في ملكوته ... من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب ، والعبد من صنع يديه سبحانه ، وهو الجليل العظيم ، الحي الدائم الأزلي الأبدي ، الأول والآخر والظاهر والباطن .

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لايدركها كذلك إلا من ذاقها ... وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا هائلاً عظيمًا ، وفضلاً غامرًا جزيلاً ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه ، وهو إنعام هائل عظيم ، وفضل غامر جزيل .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلَّما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين ، وهذا هو الباب الذي تفوّق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين - وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف - ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد وهي تقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الودّ فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض ، وينطبع في كل حي وفي كل شيء فإذا هو جوّ وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلاً في ذلك العبد المحب المحبوب .

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة ، إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] ،

﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [البروج : ١٤] وعجبًا لقوم يمرون على هذا كله ليقولوا : إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف ، يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر وعذاب وعقاب وجفوة وانقطاع ، لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن الله ؟! ، وأقنوم الإله ، فيربط بين الله والناس في هذا الازدواج ! .

وهنا ـ في صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين ـ يَرِد ذلك النص العجيب ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ويُطلق شحنته كلها في هذا الجو الذي يحتاج إليه القلب المؤمن ، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق ، شاعرًا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل » (١) .

وقال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ :

« ومحبة الله مرتبة عالية عظيمة ، ووالله إن محبة الله لتُشترى بالدنيا كلها ، وهي أعلى من أن تحبَّ الله ، فكون الله يحبك أعلى من أن تحبه أنت ، ولهذا قال بعض العلماء : الشأن كل الشأن في أن الله يحبك لا أنك تحب الله ، كلٌّ يدعي أنه يحب الله لكن الشأن في الذي في السماء ـ عز وجل ـ هل يحبك أم لا ؟ ، إذا أحبك الله ـ عز وجل ـ أحبتك الملائكة في السماء ، ثم يوضع لك القبول في الأرض فيحبك أهل الأرض ويقبلونك ويقبلون ما جاء منك ، وهذه من عاجل بشرى المؤمن » (٢) .

وقال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

« إن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معًا ، ولا يتم الأمر إلا بهما ، فليس الشأن في أن تحب الله ، بل الشأن في أن يحبك الله ، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرًا وباطنًا ، وصدقته خبرًا وأطعته أمرًا ، وأجبته دعوة ، وآثرته طوعًا ، وغنيت عن حكم غيره بحكمه ، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته ، وعن طاعة

---

(١) في ظلال القرآن (٢ /٩١٨، ٩١٩) .

(٢) من شرح ابن عثيمين على الواسطية ، (ص ١٧٥ ، ١٧٦) .

غيره بطاعته ، وإن لم يكن ذلك فلا تتعن ، وارجع من حيث شئت ، فالتمس نوراً فلست على شيء ، وتأمل قوله : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، أي الشأن في أن الله يحبكم لا في أنكم تحبونه ، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ » (١) .

هذه بعض أقوال المحبين العارفين الذين أفنوا أعمارهم وبذلوا كل ما يملكون ليحظوا بمحبة خالقهم ، فلم يتركوا عملاً علموا أنه يحبه إلا فعلوه ، لأنه السبيل إلى محبته سبحانه وتعالى، وهم قبل هذا أو ذاك يقدِّرون معنى محبة الله للعبد .

ولعله يزيدك إدراكًا وفهمًا لقيمة محبة الله للعبد أن تتذكر أن الله هو الغني الحميد، وكل الخلق محتاجون إليه ، فقراء إلى ما عنده ،كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥]، والإنسان منا إذا أحبه إنسان غنيّ ذو ثراء لغير مصلحة أو حاجة كان هذا محل تقدير عند المحبوب ، يقول : إنه يحبني وأنا المحتاج إليه وليس هو .

فكيف بك إذا أحبك الله ؟ :

محبة العبد لربه لا تخلو من طلب ، ومهما كان الطلب ساميًا راقيًا إلا أنه حاجة ، وأما محبة الرب للعبد فهي خالصة عن الحاجة ، ولهذا وصف الله تعالى نفسه بالوُدّ « وهو صفو المحبة وخالصها ولبها » (٢) ، فقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [البروج :١٤] .

واقرأ هذا الحديث بتأمل وتمعُّن ، وفيه أن النَّبيّ ﷺ قال لأُبيّ بن كعب رضي الله عنه ذات يوم: « إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ » ، فقال أُبيٌّ : وسمَّانِي لك باسمي ؟ ، قال : « نعم » ، فبكي أُبيٌّ رضي الله عنه (٣) .

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين (٣ / ٣١) ، ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت ٢٠٠١م .
(٢) مدارج السالكين (٣ / ٢٤) .
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٩٩) ك صلاة المسافرين وقصرها .

أتدري لماذا بكى أُبيٌّ؟ ، لقد بكى فرحًا لأنه أدرك مقدار النعمة والمنة في أن يذكره الله باسمه في الملأ الأعلى ، فكأنه قال : ومن أنا حتي يذكرني الله باسمي، فاستعبر وبكى ، ويا لها من نعمة لا يقدر قدرها إلا أهل الذوق ، وأما المحروم فربما يظنها حكايات ! .

وليس هذا لأُبيّ ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ فقط ، بل كما جاء في الحديث القدسي يقول رب العزة ـ جل وعلا ـ « **من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي** »، ونفس الله أعظم من نفوسنا « **ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه** » ، وفيه أيضًا : « **ومن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة** » (١) .

إذا فحبُّ الله تعالى للعبد أمر لا يُقدَّر ولا يُقوَّم ، فما الذي يصلح أن يكون ثمنًا له وعظمته لا تقدر !!! .

(١) الحديث أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥) ، ومسلم برقم (٢٦٧٥) .

obeikandl.com